سمو الفقر
فى المصلح الاجتماعى الأعظم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

— ١ —

كان النبى صلى الله عليه وسلم على مايصف التاريخ من الفقر والقلة ، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقير لايجوز أن يوصف بالفقر ولا تناله المعانى النفسية التى تعلو بعَرَضٍ من الدنيا وتنزل بعرض ، فما كانت به خَلّة تحدث هدما فى الحياة فيرممها المال ، ولا كان يتحرك فى سعى ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا ، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمع أدرك أو طمع أخفق ، ولا نظر لنفسه فى الحسبة والتدبير لتدرّ معيشته فيحتلبها ذهباً أو فضة ، ولا استقر فى قلبه العظيم مايجعل للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم ؛ فان المعنى الحىّ لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة فى صورة تكبر على قدر من السعة والغنى ؛ والمعنى الحى للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية فى صورة تصغر على قدر من الضيق والعُسرة .

إن فقرهُ صلى الله عليه وسلم كان من أنه يتّسع فى الكون لا فى المال ، فهو فقر يعد من معجزاته الكبرى التى لم يتنبه إليها أحد إلى الآن ، وهو خاص به ، ومن أين تدبّرته رأيته فى حقيقته معجزة تواضعت وغيّرت اسمها . معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى ، وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرناً ، وهى اليوم تثبت بالبرهان معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى صفة نفسه « إنما أنا رحمةٌ مُهْدَاة »

نحن فى عصر تكاد الفضيلة الانسانية فيه تلحق بالألفاظ التاريخية التى تدل على ما كان قديما . . بل عادت كلمة من كلمات الشعر تراد لتحريك النسيم اللغوى الراكد فى الخيال ، كما تقول : السحاب الأزرق ، والفجر الأبيض ، والشفق الأحمر ، والتطاريف اوردية على ذيل الشمس ؛ وأصبح الناس ينظر أكثرهم إلى أكثرهم بأعين فيها معنى وحشىّ لو لمس لضرب أو طعن أو ذبح ؛ وعملت المدنية أعمالها فلم تزد على أن أخرجت الشكل الشعرى لانسانها الغنى ترفا ونعمة وافتناناً بين ذلك ، من أيسر الحلال إلى الفظيع المتفاحش فى الاباحة ، فكأنما وضعت المدنية عقلاً فى وحش ، فزاغت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ ثم قابلته بالشكل الوحشى لانسانها الفقير ، فكأنما نزعت عقلاً من إنسان ، فضلت فيه الطبيعة من ناحيتين ؛ وكان مع الأول سَرَف الهوى ، وكان مع الثانى سَرَف الحماقة .

وقد أصبح من تهكم الحياة بأهلها أن يكون الفقير فقيراً وهو يعلم أن صناعته فى المدنية هى عَمَلُ الغِنَى للأغنياء . . وأن يكون الغنىّ غنياً وهو يعلم أن عمله فى المدنية هو صنعة الفقر لضميره .

وخرجت من هذا وذاك مسائل جديدة فى فلسفة المعايشة الانسانية التى يسمونها « الاجتماع » ، فسؤال اسمه الاشتراكية يسأل القوة أن تجعل صاحب المال من ماله كالمرأة المطلقة من رجلها . . وسؤال اسمه الشيوعية يطلب من القوة أن تسلط على كل حىّ ما يجعله فى قواه كصاحب الدار سلط عليه الطغيان فانقلبت داره سجنه ، فهو يتألم من معنى نعمته بمعنى شقائه ، ويكون أغيظ له أن روح السجن ليست شيئاً غير روح البيت ؛ وسؤال اسمه العَدَمِيّة (١) يأمر القوة أن تجعل الانسان كالحيوان المُسْتَوْلِغ فيما يجده من طيب وخبيث لايبالى ذماً ولا عاراً ، وليس إلا أنه يعيش ليموت أكلاً ونوماً . . .

هذا إلى أسئلة كثيرة لو ذهبنا نعدها ونصفها لطال بنا القول وكلها عاملة على نزع الشعور العقلى من الحياة لتظهر أسخف مما هى ، وأقبح مما كانت ؛ حتى أصبحت الشمس تمحو ليلاً عن المادة وتلقى ليلاً على النفس ، فى حين أن الدين والانسانية لايعملان غير بث هذا النور العقلى فى الأشياء والمعانى لتظهر الحياة مضيئة ملتمعة فتصبح أوضح مما هى فى نفسها ، وأجل مما هى فى الطبيعة .

فى مثل هذه النزعات المتقاتلة التى صعدت بالفلسفة ونزلت ، وجعلت من العلم فى صدر الانسانية ملء سماء من الغيوم بسوادها ورعدها وصواعقها ، وتركت العالم يضج ضجيجه المزعج فى قلب

(١) الفوضوية وما هو فى معناها من طيش النزعة

كل حى حتى لتذاع الهموم إلى قلوب الناس إذاعة الأصوات إلى أسماعهم فى « الراديو » . . . فى مثل هذا البلاء الماحق تتلفت الانسانية إلى التاريخ تسأله درساً من الكمال الانسانى القديم تطبّ منه لهذه الحماقات الجديدة ، ولو علمت لعلمت أن درس هذا العصر فى علاج مشاكله الانسانية هو « محمد » صلى الله عليه وسلم الذى لن يبلغ أحد فى وصفه الاجتماعى ما بلغ هو فى قوله « إنما أنا رحمة مهداة »

***

هذا المصلح الاجتماعى الأعظم يلقى فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية ، لا من كتاب ولا فكر ، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ؛ إذ ليس المصلح من فكّر وكتب ، ووعظ وخطب ، ولكنه الحىّ العظيم الذى تلتمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه وتجعل له عمراً ذهنياً يكون مُصَرِّفاً على حكمها ، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها . وما كان محمد صلى الله عليه وسلم إلا عمراً ذهنياً محضاً تمر فيه المعانى الالهية لتظهر للناس إلهية مفسرة . وكل حياته صلى الله عليه وسلم دروس مفنّنة مختلفة المعانى ، ولكنها فى جملتها تخاطب الانسان على الدهر بهذه الجملة : أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى إذا كانت الحياة فى الحقيقة فلا تكن أنت فى الكذب ، وإذا كانت الحياة فى الرجولة البصيرة فلا تكن أنت فى الطفولة النزقة ؛ فان الرجل يعرف ويدرك فهو بذلك وراء الحقيقىّ ، ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينيه فهو وراء الوهم ، ومن ثم طيشه ونزقه ، وإيثاره كل عاجل وإن قلّ ، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة فى مثل توثب أعضاء جسمه ، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً . .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك . أى الحياة فى ذاتك الداخلية وقانون كمالها ، فاذا استطعت أن تُخْرج للأرض معنى سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً فى الانسانية وأنت بذلك عائش فى القريب القريب من الروح ، وأنت به شىء إلهى ؛ وإذا لم تستطع وعشت فى دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً فى الحيوانية ، وأنت بذلك عائش فى البعيد البعيد من النفس وأنت به شىء أرضى كالحجر والتراب .

هنا ، أى فى الارادة التى فيك وحدك ، لا هناك ، أى فى الخيال الذى هو فى كل شىء . وهنا ، فى أخلاقك وفضائلك التى لاتدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة ؛ وليس هناك ، فى أموالك ومعايشك التى تجعلك كاللص مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نَهْبة أو سرقة . هنا ، فى الروح إذ تشعر الروح أنها موجودة ثم تعمل لتثبت أنها شاعرة بوجودها ، ماضية إلى مصيرها ، منتهية بجسدها إلى الموت الانسانى على سنة النفس الخالدة ؛ وليس هناك فى الحس إذ يتعلق الحس بما يتقلب على الجسم فهو مهتاج لشعوره بوشك فنائه فلا يحدث إلا الألم إن نال أو لم ينلْ ، وهو منتهٍ بجسمه إلى الموت الحيوانى بين آكل ومأكول على سنة الطبيعة الفانية .

أيها الحى ، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك

***

إن الحكيم الذى ينظر إلى ماوراء الأشياء فيتعرف أسرارها لا تكون له حياة الذى يتعلق بظاهرها ولا أخلاقه ولا نظرته ، هذا الأخير هو فى نفسه شىء من الأشياء له مظهر المادة وخداعها عن الحقيقة ، وذلك الأول هو نفسه سر من الأسرار له روعة السر وكشفُه عن الحقيقة . ولهذا كان فى حياة الأنبياء والحكماء مالا يطيقه الناس ولا يضبطونه إذا تكلفوه ، بل ينخرق عليهم فيكون منه العجز ، وينشأ من العجز الغلط ، ويحدث من الغلط الزلل .

ونظرة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوجود نظرة شاملة مدركة لحقيقة اللانهاية ، فيرى بداية كل شىء مادىّ هى نهايته فى التوّ واللحظة ، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً ، فهو فى اعتباره موجود غير موجود ، مبتدىء منتهٍ معاً . وبذلك تبطل عنده الاشياء المادية وتأثيرها ، فلا تتصل بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها ، ويجد لها الناس فى حياتهم الشجرة والفرع والثمرة ، وما لها عنده هو جذر ولا فرع . وبهذا لم يفتتنه شىء ولم يتعلق بشىء ، وكانت الدنيا تطول الناس وتتقاصر عنه ، وكانت منقطعة النماء وهو ذاهب فى نموه الروحى ، وكأنما هو صورة أخرى من آدم عليه السلام ، فكلاهما لمس بنفسه الحياة جديدةً خالية مما جمع فيها الزمن وأهله

من طمع وشَرَه ، وجاء آدم ليعطى الأرض ناسها من صلبه ، وجاء محمد ليعطى الناس قوانينهم من فضائله ، فآدم بشخصه هو دنيا بُعثت لتتسع ، ومحمد بشخصه هو دنيا بعثت لتنتظم .

وماذا يُفهم من الفلسفة الأخلاقية النبوية العظيمة ؟ يفهم منها أن الشهوات خلقت مع الانسان تتحكم فيه لينقلب بها إنساناً يتحكم فيها ، وأن الانسان الصحيح الذى لم تُزَوِّره الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح فى حكم النور انطلاقه وحريته ، ولا ينكمش فيحصره جسمه فى غاياته وضروراته فيرتدّ إلى ماهو أسفلَ أسفلَ حتى يعود فى حكم التراب وأسره وعبوديته . فالفقر وما اليه ، والزهد هو بسبيل منه ، والانصراف عن الشهوات والرذائل — كل ذلك ان هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال ، وشيئاً بعد شيء ، لتضيء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تبالها ولا تقيم لها وزنا . فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور ، تراها هى مادة بحث ومعرفة واعتبار ليس غير ، وبهذا تكون النفس العظيمة فى الدنيا كأستاذ المعمل ، تدخل المادة إلى معمله وهى مادة وفكرة ، وتخرج منه وهى حقيقة ومعرفة ، وعلى أى أحوالها فهى إنما تُحس فى ذلك المعمل بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الحرص ، ولكن فيها الذهن والفكر ، وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة ، ولكن طبيعة الانتباه والتحرّز ، وليست فى أسر المادة ، ولكن المادة فى أسرها ماشاءت .

ولا يسمى فقره صلى الله عليه وسلم زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ، ولا يحققون أصوله النفسية ، وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوى بأرواح مظلمة تُريهم ما تُرى العينُ إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء فتراءت مجملة لا تفصيل لها ، مُفرغة لا تبيين فيها ، وما بها من ذلك شيء ، غير أنها تتراءى فى بقية من البصر لا تعمرها .

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك ، وتنصرف عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخرية ومُثْلة ، وهى فى رأيى تشويه للجسم بروحه ، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها فليس يعلم إلا الله وحده : أذاك تفسير لانسانية الزاهد بالنور ، أم هو تفسير بالتراب . . . .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يملك المال ويجده ، وكان أجودَ به من الريح المرسلة ، ولكنه لا يدعه يتناسل عنده ، ولا يتركه ينبت فى عمله ، وإنما كان عمله ترجمة لأحساسه الروحى ، فهو رسول تعليمى ، قلبه العظيم فى القوانين الكثيرة من واجباته ، وهو يريد إثبات وحدة الانسانية ، وأن هذا الانسان مع المادة الصامتة العمياء مادةٌ مفكرةٌ مميزة ، وأن الدين قوة روحية يلقى بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بازائها شيء على شيئيّته ، إذ الروح خلود وبقاء ، والمادة فناء وتحوُّل ، ومن ثم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتتغير معها ، فان لم تخضع لم تُخْضِعْها ، وإن لم تتغير لا تتغير الروح بها ، وأساس الايمان أن ماينتهى لا ينبغى أن يتصرف بما لا ينتهى .

وماقيمة العقيدة إلا بصدقها فى الحياة ، وأكثر مايصنع هذا المال : إما الكذب الصُّراح فى الحياة ، وإما شبهة الكذب ، ولهذا تنزَّه النبى صلى الله عليه وسلم عن التعلق به ، وزاده بعداً منه أنه نبىّ الانسانية ومثلُها الأعلى ، فحياته الشريفة ليست كما نرى فى الناس إيجاداً لحلّ مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره ، ولا توسّعا من ناحية وتضييقا من الناحية الأخرى ، ولا جمعا من هنا ومنعا من هناك ، بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى اقرار التوازن فى الانسانية ، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من الكون . وبهذا العقل الكونى السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشيء من الدنيا يفتنه أو يصرفه عن واجبه الانسانى — أبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها ، فاذا هو فى قانون السمو ، وإذا المادة فى قانون الثقل ، فيرتفع وتتهاوى ، ويصبح الذهب — وإنه ذهب — وليس فيه عند المؤمن إلا روح التراب .

مصطفى صادق الرافعى

الرسالة فى شهور الصيف

تسهيلاً لوصول الرسالة الى قرائها مدة العطلة تقبل الادارة الاشتراك الشهرى بواقع أربعة قروش عن كل أربعة أعداد تدفع مقدماً